المقامة اليتيمة

تأليف الدكتور
عبدالعزيز بن محمَّد بن عبدالله السدحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي علّم بالقلم، وأنزل أعظم الكَلِم، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، وبعد:

فلقد قرأتُ شيئًا من مقامات الحريري وبديع الزمان ـ رحمهما الله تعالى ـ فعجبت من بليغ كلامهم، وحسن سياقهم، وتنوُّع عباراتهم، فتذكرت قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «أهل العربية هم جِنُّ الإنس يبصرون ما لا يبصر غيرهم».

شاهد المقال: أنني تطفّلت على عنوان كتابهم فكتبتُ هذه المقامة التي لا تبلغ عند مقامة أحدهم حدَّ الكعب من القامة، وقد بقيت هذه المقامة الكسيرة اليتيمة رهينة المحبسين: محبس حسِّي، ومحبس معنوي؛ المحبس الحسِّي محبس الكنّاشة، والمحبس المعنوي محبس الخجل من التطفّل على أهل الأدب.

ثمَّ عزمت على إخراجها بعد أن بلغت عمرًا[1] تحبو فيه بيديها، ولا أظنّها تقوم على قدميها، ومن لم يستطع الصلاة قائمًا فليصلِّ جالسًا، ومن عُقد لسانه عن العبارة فليكتف بالإشارة، وقد سمَّيتها بـ:

«المقامة اليتيمة»

لعل كافلها[2] يترفق إصلاح خللها، وجبر كسرها، وتقويم عوجها.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

(١) كتبتها عام ١٤٢٧هـ.

(٢) من يقرؤها من أهل اللغة والأدب.

طرقتُ باب القوم، والجمعُ أسرَى النوم، فقال منهم قائل[1]: جميعُ القوم قائل[2]، أزائرٌ أم سائل؟ فقلت سائلٌ يطلب القِرَى، ويُزمِعُ السيرَ إلى أمِّ القُرى، فأطلّ عليَّ بوجنتيه، وقد أغمض جفنيه، وقطّب عن حاجبيه، فقال يا طارق الدور، ألم تقرأ في سورة النور؟ ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾، أصمٌّ أنتَ أم بُكم؟

قلت: أتنهر السائل؟ وتقطع المسائل؟ ألم تقرأه في سورة الضحى؟ أبينَ من النور في الدُّجى[3]، إن كنت يا هذا من أولي النهى! أما تَقْرِي الضيف؟ وتحسُّ حرَّ الصيف؟ ثمّ رفعت عقيرتي بِغَيْض: ألَا تعرفُ حمَّارة القيض؟ فالبيضاء لي عمامة، والرَّمضاء لي وِسادة، أنُزِعَت من قلبك الرَّحمة؟ كما تُنزَع اللحمة من الشحمة، فإدخال السُّرور عَلَيَّ قُربة، وتنفيس لكربة، وأنسٌ بعد غُربة، ومع هذا كلِّه فلم تَشْرَع لِيَ الباب، والسَّفَر قطعةٌ من عذاب، خَمَّنتُ فيك بالفراسة، فكنت أهلًا للرّفاسة!

فشددتُ رحلي، وأدرتُ له ظهري، وولّيتُ شطر المسجد

---

(١) من القول.

(٢) من القيلولة.

(٣) الدُّجى: سواد الليل مع غيم وألّا ترى نجمًا ولا قمرًا. «لسان العرب» (٣/ ١٣٣٢).

وجهي، ومن أحسن إلى الله السير، وظنّ بربِّه الخير، وحَذِر التشاؤم بالطير، فلا خوفٌ عليه ولا ضَيْر.

فأُذِّن للعصر، وجاء الحي يسر، فاصطفّوا للجماعة، ونعمت البضاعة، فكبَّر الإمام، والقوم بانتظام، وكلٌّ في صَلاته، يدعو بنيل صِلاته.

فلمَّا انفضَّ الجمع، وصام عن لفظهم السَّمع، بقيتُ رهن الخلوة وحدي، وأسلمتُ لعمود ظهري، فرفعتُ كفِّي ضارعًا، ولباب الخير قارعًا، ومن فضل الكريم سائلًا، مبتدئًا بالثناء قبل الدعاء، كذاك نصَّ العلماء، جاءت في متن القائل: دبِّج الرَّسائل بالمسائل[1]، فناجيتُ الرَّحيم الكريم، الذي فلقَ البحر للكليم، وجعل النارَ بردًا وسلامًا على إبراهيم، وفدى بالكبش إسماعيل الذَّبيح، وأبرأ بإذنه الكسيح على يد المسيح، وأخرج ذا النون من الضيق إلى الفسيح، وكشفّ ضرَّ أيوب، وأفرح بيوسف يعقوب، أن يكشف الكربة، ويجعل المحنة منحة.

ثمَّ قلّبتُ منِّي الطرف، فلمحتُ سوادًا في طرف الصفّ،

---

(١) يُسمِّي ذلك بعض أهل العلم بـ«تقديم الرسائل على المسائل»، والمراد بالرَّسائل: جُمل الثناء على الله تعالى. والمسائل: جُمل الدعاء. ومثّلوا بسورة الفاتحة؛ جُمل الثناء الآيات الثلاث الأُوَل، والدعاء من قوله تعالى: ﴿اهدنا..﴾ إلى آخر السورة.

يلزمُني بنظره كلزوم الكفّ للكفّ، قد أحدَّ لي منه البصر، كمن يقصُّ عن خُطاه بالأثر، فأدرتُ عنه رأسي، وشغلتُ عن فضوله بنفسي، فدبَّ نحوي دبيب العناكب، حتى تحاذت منّا المناكب، فرمقتُه بعيني، واستثبتُّ فيه أمري، فإذا هو بشخصه ووصفه، وشحمه ولحمه، فقلتُ أنت صاحب الدار[1]، عزاءٌ لمن كان لك بالجار، فاهتبلتُ منه الجلوة، وأفقدتُه سكون الخلوة، فَخِلتُ نفسي سحبان وائل، وزوَّرتُ[2] في نفسيَ المسائل، فقلتُ: أتزهدُ في الأجر؟ وترغبُ في الوِزر؟ أما تتّقي الخالقَ؟ فهو الكريم الرَّازق، أوجدنا من العدم، وخصَّك دوني بالنِّعَم، خِلتُك لي بعد الله أملًا، فزدتّني مع وعثاء السفر ألمًا! لا خيرَ فيك يُرجَى، بل شرٌّ منك يُدرَأ، فأنعِمْ بالله ملتجا، فهو خير مرتجى.

فرأيتُ في وجنتيه حسرة، وفي مُقلتيه عَبرة، فطأطأ رأسه وكفكف دمعه، وسبقت عباراتِه عَبَراتُه، فغالبَ لسانَه، واستفتح مقالَه: ألم تقرأ في سورة المشورة[3]؟ خصالًا للخير مذكورة، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، كان بالأجر أفلح.

فالتفتُّ إليه، وقد آثرني اللهُ عليه، فقلتُ: لا تثريب

---

(١) صاحب الدار الذي جاء خبرُه في أوَّل المقامة.

(٢) في «القاموس»: «زوَّر الشيء: حسَّنه وقوَّمه».

(٣) سورة الشورى.

عليك، فهاتِ ما لديك.

فقال: يا أخا العرب، تقبَّل اللهُ منك القُرَب، وفرَّج بفضله عنك الكُرَب، أبشر بشراب بارد، ولحم حنيذ ناضج، يُفطِرُ لو خُيِّر به الصائم[1]، ويقعُد لو رآه القائم، ويهرعُ لو نبِّه له النائم.

فطَعِمْنا وما طَمِعْنا، وشكرنا وما كفرنا، فقلت: يا صاحب الدار، أكلَ طعامَكُم الأبرار، قد أكلتُ بالنهس والنهش[2]، حتى أسكتُّ منِّي أنين الكرش، وأمطرتْ عليَّ من الطيب بالرَّشّ، فطاب الجلوس للدرس على الفرش.

قال: أتعرفُ أرباب الفصاحة؟ أهل الصِّناعة[3] والبلاغة؟

قلت: لستُ منهم بالقرابة، بل لم أحظَ فيهم بالرَّضاعة، لكن من جالس القوم، كان كمن حضر السَّوم، فإن لم يملك العَين[4]، فقد ظفِرَ بنظر العين[5]، ومن لم يرَ المائدة، فلن يعدم الرَّائحة.

---

(١) أي: الصائم المتطوِّع. وفي الحديث: «الصائم المتطوِّع أمير نفسه، إن شاء صام وإن شاء أفطر». أخرجه الإمام أحمد والترمذي عن أمّ هانئ رضي الله تعالى عنها.

(٢) نهس اللحم: أخذه بمقدّم الأسنان، والنهش: الأخذ بجميعها. «لسان العرب» (٨/ ٤٥٥٨).

(٣) الصِّناعة اللغوية.

(٤) عين السلعة.

(٥) العين الباصرة.

فقال: سمِّ منهم[1] فردًا، أو هاتِ اثنين سردًا، فقلتُ: بل ثلاثة، فلست بالكلالة، أو شئتَ زدتُ سبعة، فتمَّ الجمع عشرة.

فقال: بل ثلاثة، عجِّل ولا تكاثر، فسوطُ الشوق جائر.

قلت: أوَّلُهم أديب، له من اسمه نصيب، أعني محمَّد بن فاضل. وشبهه في الاسم، شريكه في الرسم، عن السوء زائل، وللخير نائل، يحسن نوال السائل، كفاهُ اللهُ شرَّ الصَّائل، أعني محمد بن صامل. وثالثٌ للشرِّ تارك، وللخير بَارَكَ[2]، أعني المبارك بن المبارك، إن رمتَ عونًا أسرع، وعن ذراعيه أفرع[3].

فقال: أين أنتَ منهم؟ فالقوم كالسحاب، وأنت كالسراب!

قلت: تفسير الواضح من الفاضح، ألَا تفرق بين الغادي والرَّائح؟ وهل ابن منظور كابن منصور؟ لكن أصغ لي سمعك، وأعمل فيما يلقى عليك فكرك:

ما ثلاثة في ثلاثة؟ لم تجمع بينهم قرابة، كلَّا ولا رضاعة، تشابهوا في الاسم، تقاربوا في الرَّسم، تخالفوا في الحُكم،

---

(١) أي: من أرباب الفصاحة والبلاغة.

(٢) بارَكَ على الشيء: واظب. «اللسان» (١/ ٢٦٧).

(٣) ثلاثة من الأساتذة الأفاضل أفدتُ منهم علمًا وأدبًا: د. محمد بن خالد الفاضل، ود. محمد بن علي الصامل، ود. عبدالله بن مبارك الدوسري.

فواحد حلاوة، وواحد حرارة، وواحد خسارة.

وما ثلاثة في ثلاثة؟ تشابهوا في الاسم، تقاربوا في الرَّسم، توافقوا في الحكم، وكلّهم خسارة وكلّهم قرابة، فواحدٌ في الأكل، وواحدٌ في النسل، وواحدٌ في العقل.

وما ألم قارّ، لصاحبه ضار، كأتراح في دار؟

وما أمل قارّ، لصاحبه سار، كأفراح في دار؟

ففكَّرَ وقدّر، وأقبل وأدبر، فلم يأتِ من سؤلي بنائل، فصيَّرني مسؤولًا وهو السائل.

فقال: ما ثلاثة في ثلاثة، لم تجمع بينهم قرابة، كلا ولا رضاعة، تشابهوا في الاسم، تقاربوا في الرسم، تخالفوا في الحكم، فواحدٌ حلاوة، وواحد حرارة، وواحد خسارة؟

قلتُ: السّكر في التمر، والحرّ في الجمر، والخُسر في الخمر.

فقال: وما ثلاثة في ثلاثة تشابهوا في الاسم تقاربوا في الرَّسم، توافقوا في الحكم، وكلهم خسارة، وكلّهم قرابة؟

قلت: الرِّبا والزِّنا والغناء، في الرِّبا خبث الأكل، والزنا فقد النسل، والغناء موت العقل.

فقال: ما ألم قار لصاحبه ضار، كأتراح في دار؟

قلتُ: حسدٌ في جسد كنار في غار.

فقال: ما أمل قار، لصاحبه سار، كأفراح في دار؟

قلت: فألٌ وإيثار وصفاء نفس بلا أكدار.

ثمَّ عطفتُ عليه، ووجَّهت سهام القول إليه: خِلتُك عينًا غزيرة، فكنت كسراب البقيعة! فأنت أحقّ بوصفك، وقد نبشتَ قبرَ جهلك.

فاحمرَّ وجهُه وانتفخ، فدمغتُه بـ«يداك أوكتا وفوكَ نفخ»[1].

ثمَّ مددتُ إليه بصُرَّة، وقلت له مرَّةً إثر مرَّة: في قابل أرجع إليك الكرَّة، فظهر ضوء ثناياه مع بريقه، فأحدق فيَّ بريبة ثم ابتلع ريقه.

فقال: أمرُك عَجَبٌ، ولفظك أَدَبٌ، أشاعرٌ أنت أم كاتب؟

قلت: لستُ منهما بالفاعل ولا من الفاعل بالنائب، أمَن قال بيتًا شاعر؟ أو خطّ حرفًا كاتب؟

قال: أخطيبٌ أنت أم أديب؟ قلت: لست بالخطيب لفظًا، بل ولا الأديب خطًّا، فلست من بني المنابر، كلّا ولا بني المحابر، فلست منهم حقًّا لا المجاز، أتجعل اليمامة بالحجاز؟ لكن كسير الشاء يجزي، في الأكل دون هدي

---

(١) أصل هذا المثل: أنّ رجُلًا كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يَعبُر على زق نَفَخ فيه فلم يُحسِن إحكامَه، حتّى إذا توسَّط البحر خرجت منه الرِّيح فغرق، فلمَّا غشيه الموتُ استغاث برجُل فقال له: يداك أوكتَا وفوكَ نَفَخ! يُضرب لمن يجني على نفسه. «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٤١٤).

النسك، لكن لي من بني الأدب عمّ[1]، وهبني من ثمار الأدب بالكيف والكم، تخاله الأصمعي في السرد، أو كمن يقدِّر في السرد.

ثمَّ قلت: ألم تقرأ مقالة القاسم[2]، في مقامة بديعة المقاسم؟ بغياب الأدب عن ظرف زمانه، وذهاب رجاله عن ظرف مكانه، فزبر ما رقمته، وفي رقيمه قرأته: «فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه..» إلى آخر رسمه، آمنه الله في رمسه.

فرحم الله محمدًا القاسم[3]، وأناله شفاعة أبي القاسم، فإن كان أدبهم قد ركدت ريحه، فقد تكدّر عندنا لونه وطعمه وريحه، فلو رأى حال بعض أدباء اليوم، لقال: هنيئًا للبحر بمن لا يُحسِن العَوم، وإلّا فالصوم عن أنديتهم والنوم.

فلما أزمعتُ الهجرة، نادى من جوف الحجرة، فقال: ألَا تقصر الخُطى، فـ«عند الصباح يحمد القوم السُّرى»[4].

---

(١) العمّ الأديب ناصر بن عبدالله السدحان.

(٢) الحريري في «مقاماته» (ص٤).

(٣) أي: الحريري.

(٤) أوَّل من قاله خالد بن الوليد لمّا بَعَث إليه أبو بكر رضي الله عنه ـ وكان باليمامة ـ أن يسير إلى العراق، ونالته مشقّة بسبب العطش، فأسرى حتّى أدرك الماء فقال: عند الصباح يَحمد القوم السُّرى.
يُضرَب المثل لمن يحمل المشقة رجاء الراحة. =

فقلت: قد تشبّهت بالليل[1]، والأرض تُطوَى بالليل[2]، فمدّ الكفّ للمصافحة، ثمَّ ثنّى بالمعانقة.

= «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٣)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (٣/ ٣٥).

(١) الليل: هو فرخ الحبارى. وقيل: فرخ الكروان. ومنه قول القائل ملغزًا:

أكلتُ النهار بنصف النهار وليلًا أكلتُ بليل بهيم

والنهار: فرخ القطاة.

(٢) حديث: «**عليكم بالدُّلجة، فإنّ الأرض تُطوى بالليل**». أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي عن أنس رضي الله عنه.

قال ابن الأثير: «عليكم بالدلجة: هو سير الليل. يقال: أدْلَجَ ـ بالتخفيف ـ: إذا سار أول الليل. وادَّلَجَ ـ بالتشديد ـ: إذا سار من آخره. والاسم منهما الدُّلْجة، والدَّلْجة، بالضم والفتح. «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٢٩).

وقوله: «تطوى بالليل» قال المناوي: «أي: ينزوي بعضها على بعض، ويتداخل فيقطع المسافر من المسافة فيه ما لا يقطعه نهارًا، سيما آخر الليل الذي ما فُعل فيه شيءٌ إلّا كانت البركة فيه أكثر؛ لأنه الوقت الذي ينزل الله فيه إلى سماء الدنيا». «فيض القدير» (٤/ ٣٤٠).